يتصيد النجوم ويتحين الفرص في الوقت ذاته . فهو يشجع الذكور ويغوي الاناث كما يتمنى ويرغب في ان تستمر « الاوضاع الداخلية على حالها » دون تغيير بغية تحقيق بعض المكاسب والمغانم الشخصية . انه يصور فيلما عن الجبهة المصرية ، أفرد دور البطولة فيه « لمرزوق انور » ، الطالب الجامعي المتخرج حديثا ، والذي أغواه بهذا الدور وكان من نتيجته ان دمر حياته وحطم أحلامه . والمخرج لا يرغب بتصاعد درجة سخونة الجبهة ، انه يريدها ان تبقى كما هي — لا حرب ولا سلم — والا فشل مشروع فيلمه التجاري . انه — والطبقة البرجوازية المتوسطة معه — يفضل الاثراء ونجاح فيلمه على عودة السخونة الى الجبهة وبدء القتال.

● أما البرجوازية الصغيرة المتمثلة خير تمثيل « بمنى زهران » المتمردة والتي تعاني من مصاعب حيرة شديدة ، لا تعرف ماذا تريد . هل تريد الزواج ؟ « منى زهران » تتخلى عن خطيبها تارة وتعود اليه تارة ، لتتركه ثانية وتفكر وتعتزم الهجرة . ولكنها تبقى في مصر وتطلب ود صديقاتها من بنات الشعب (عليات وسنية) وتتحدث عن مشاكلهن بحماس احيانا وبفرف وبرود وسخرية احيانا اخرى . انها الفتاة التي يطلب ودها المخرج السينمائي (البرجوازية المتوسطة) حينا ، والمحامي « حسن حمودة » (بقايا الاقطاع) حينا آخر . الا ان أيا منهما لم يفز بها . انها تتخبط ، كالطير المذبوح ، تحت وقع الهزيمة القاسي ، هذه الهزيمة التي وضعتها في ورطة مذهلة ، فباتت غير قادرة على الفهم وتركت مهمة التفكير لنزواتها الى ان ارتكب اخوها جريمة قتل ذهب ضحيتها المخرج السينمائي .

● « حسني حجازي » هو الشخصية المركزية في الرواية التي تحدثنا عنها آنفا . فهو عانس ومصور سينمائي للافلام الوثائقية. علاقاته مترامية الاطراف ، تبدأ من ماسح الاحذية « عشماوي » وتنتهي ببقايا الاقطاع (حسن حموده والسحاتية سمراء) . « حسني حجازي » ليس له اي دور في الرواية، بل ان كاميراته هي التي تصور وتروي العلاقات القائمة بين شخصيات الرواية دون ان يكون له اي دور مؤثر في طبيعة تلك العلاقات . وبعبارة اخرى ، هو الحيادي الوحيد ، بل هو الحياد بذاته . حيادي حيال شخصيات الرواية وعلاقاتها الاجتماعية والسياسية وحتى العاطفية ، وحيادي حيال قضية الاحتلال . الا ان حياده هذا يقوده الى طريق ممتلىء بالالام لانه يرى الواقع الفعلي لمجرى الامور ويدرك ان موقفه الحيادي ليس الا وهما . فالحياة بالنسبة اليه « عزيزة وحبها معقول » ، و « مصر عزيزة » ايضا ، الا ان حبها « لا معقول » . آه يا بلدي . أين انا من هذا كله ؟ لا همة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقية من عمر ... » .

● أما الثورة وابناؤها ، فهي في واد ، وهم في واد آخر . الثورة حاضرة في الرواية ، ولكن احتضانها لشخصياتها — أي الشعب — يتم بشكل غير مباشر . ابناؤها هم (حامد) « المتهمون » بالشيوعية ، اما الثورة فهي التي لا تزال تحتفظ بعلاقات صداقة قديمة مع بقايا الاقطاع (علاقة « صفوت » القيادي بالاتحاد الاشتراكي مع « حسن حموده ») ، ولا يوضح نجيب محفوظ في روايته أصل هذه الصداقة ، او المصلحة التي تدفع اطرافها للحفاظ عليها ، ما عدا كون هذه الاطراف تلتقي كي تثرثر حول موائد الطعام والدعوات وتحتسي كؤوس الخمر .

● المأساة في الرواية هي عند الجنود ابناء الطبقة المسحوقة . فهم على خط النار ، والناس على خط آخر . « لا يشعر بنا سوى أهلنا » يقول « ابراهيم » العائد من الجبهة لاخته « عليات » خلال نزهة يقومان بها في احد شوارع القاهرة . ومأساتهم ايضا في انهم الوحيدون الذين يتعرضون للموت والتشويه ، اذ يفقد « ابراهيم » بصره ولا يبقى له من الدنيا الا حب « سنية » التي أقسمت ان لا تتخلى عنه . ومأساتهم ايضا في السؤال الكبير الذي لا جواب له : « الى اين تمضي الدنيا ، الى اين ؟ حرب أم سلام ؟ » ، ومأساتهم ايضا وايضا انهم الوحيدون الذين يغذون نار الحرب من اجسادهم وارواحهم ، وانهم ابناء الطبقة الفقيرة . فوالد « ابراهيم » المجند هو « العم بدران » ، عامل المقهى ، وصديق « عشماوي » ماسح الاحذية و « شارب دماء الانكليز » ايام العز والشباب ، الذي كان « لا ينام على ضيم » ، والذي يحدثه قلبه ان اولاد الاغنياء لا يرسلون الى الجبهة و « لا يكتوون بنارها » .